

كتاب

١٥٧

على النجدي ناصف

تاريخ النحو



0040237



Bibliotheca Alexandrina

١٥٧

حكايات

رئيس التحرير أنيس منصور

على البغرى ناصف

تاريخ النحو



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مدخل

أقدم في هذه الصفحات المحدودة موجزاً لتاريخ النحو العربي في نشأته وتطوره ، وعوامل التأثير فيه ، وأشهر علمائه الذين حملوا أمانته ، فحفظوها ، وأدوها أحسن الأداء ، وأحقه بالإعجاب .

ومجال القول في تاريخ النحو العربي ذو سعة لمن أراد الإفاضة فيه والانطلاق : فهو أول علم دُونَ في الإسلام ؛ إذ مضى على مولده قرابة أربعة عشر قرناً لم يكن فيها لقي مهملًا ، ولا نسيًا منسيًا ، ولكن تتابعت عليه أجيال من العلماء الجادّين ، يتفقون قصدًا وغاية ، وإن اختلفوا وطنًا وجنسًا ، وشخصية ومنهج تفكير .

وكان فيهم علماء أفذاذ ، آتاهم الله ما يشاء من الكفاية وفضل المزية ، وإن كلاً من هؤلاء وهؤلاء ليبدل فيه كل ما يفتح الله به عليه ، وما تهديه تجربته إليه ، ويصوره خياله له في الجانب أو الجوانب التي طاب له أن يتناوله منها ، فكانت لنا هذه الثروة الضخمة النفيسة ، من مؤلفاته المتعددة الموضوعات والأحجام .

ولم يكن إذ ذاك تخصص في العلوم ، ولكنها كانت شركة بين طلابها جميعاً ، فهم يتواردون عليها كلها ، أو على جملة صالحة منها ، ثم يغلب على كل ما يغلب عليه منها ، وكان النحو خاصة لا يطلب هوناً ، أو يُترك استغناء إيماناً صادقاً بحاجة كل ذي علم إليه ، فهو معيار اللغة ، ومفتاح سرها ، ووسيلة الفهم عنها .

من أجل ذلك لم يكف جمهورهم بعلم ما فيه الكفاية منه ، ولكنهم توسعوا فيه ، وشاركوا المنقطعين له في الرأي والتأليف .
 وإذا كان بسط التاريخ أقدر على الاستيعاب والتبيين من إيجازه - فإن الإيجاز أقدر منه على الجمع والتقريب ، لأنه اختيار وانتقاء . ولكل مقام مقال كما يقولون . وقد جهّدت ما استطعت ألا أدع شيئاً مما بدا لي أنه حقيق بالذكر إلا جئت به في نطاقه المحدود .
 وعسى أن يكون في ذلك بلوغ غاية ، وإدراك حاجة ، إن شاء الله تعالى .

على النجدي ناصف

أولية النحو

النحو نوعان : بَصْرِي ، وكوفي . والبصري أسبق وجوداً من الكوفي ، وإليه يُرَدُّ وضع النحو ، ما في ذلك خلاف ولا مراء ، فمن حقه علينا أن نبدأ به . والحديث عنه ذو شقين : الأول عن بيته النحو والآخر عن واضعه .

بيته :

نشأ النحو في البصرة ، وما كان له أن ينشأ في غيرها : فهي المدينة التي اشتدت فيها الحاجة إليه قبل غيرها ، إذ لم تكد تُمَصَّر . ويتسامع الناس بها وبوفرة الخيرات فيها حتى انتالت إليها أفواج من العرب ، وأخرى من العجم .

وتوالت الهجرة إليها على تعاقب وازدياد ، حتى بلغت عِدَّة مقاتلتها أيام كان زياد والياً عليها - ثمانين ألفاً ، وبلغت عدة عيالهم مائة وعشرين ألفاً^(١) ، وكان تمصيرها سنة ١٤ ، وولاية زياد سنة ٤٥ فكل ما بينها نحو ثلاثين عاماً .

وعاش أهل البصرة من العرب والعجم كما يعيش أهل الوطن الواحد

(١) البيان والتبيين : ١٣٠/٢ .

من أصول مختلفة ، تجمعهم أواصره ، وتدعوهم دواعي العيش فيه إلى التفاهم والمعاملة ، ولا يمكن أن يتم تفاهم ، وتيسر معاملة إلا باللغة ، فلم يكن بد لهذه الأخطاط من اصطناع لغة واحدة ، إلى جانب لغاتها المتعددة . فكانت العربية هي هذه اللغة ، لأنها لغة الدولة القائمة ، ولسانها الرسمي ، وهيئات أن تستطيع الجاليات الأجنبية إتقان الفصحى والتحدث بها ، كما يتقنها ويتحدث بها العرب الخالص .

لذلك أصبحت العربية عربيتين : فصيحة بصطنعها العرب ، وأخرى يشيها قليل أو كثير من اللحن والتحرير ، يتحدث بها المستمرين في الحياة العامة ، على أن اللحن والتحرير كانا بشريان لغة العرب أو بعضهم أيضاً ، ولكن بمقدار ، وعلى تفاوت واختلاف : فقد روى أن عمر - رضي الله عنه - جاءه كتاب من عامله على ميسان ، وقد لحن كاتبه فيه ، فكذب عمر إلى العامل : أن قنع كاتبك سوطاً^(١) !

وشيء آخر يؤيد ظهور النحو في البصرة ، وهو : أن الإمام علياً ، وعبد الله بن عباس ، وأبا الأسود الدؤلي - كانوا يقيمون بالبصرة ، سبق إليها أبو الأسود ، وجاءها الإمام وابن عباس أيام الفتنة الكبرى ، ويتنازع الرواة نسبة وضع النحو إلى ثلاثهم في كثير من الروايات . ومعقول أن يكون وضع النحو إبان هذه الحقبة ، إذ كان خيلاط العرب

(١) البيان والتبيين : ٧ / ٢١٧ .

والمعجم حينئذ أشد ، واللحن في العربية أكثر ، والحاجة إلى النحو أكد .

وقد كان عمر - رضي الله عنه - ملهماً حين كتب إلى أبي موسى الأشعري في ولايته على البصرة أن يكل إلى أبي الأسود تعليم الإعراب (١)

واضع النحو :

وردت روايات شتى عن واضع النحو ، تتحدث عنه من جوانبه المختلفة . تتحدث عن سبب وضعه ، وعن واضعه ، وعما وضع منه أول الأمر . فأما سبب وضعه فظهور اللحن ، واستفحال خطره على مر الأيام .

وكانت العرب تحقت اللحن أشد المقت : وقرأه منقصة تترى بصاحبها ، لا في مطلع الإسلام فحسب ، ولكن فيما تلاه كذلك إلى أمد بعيد ، وكانوا لا يسكتون عن لحنه تعرض : بل لا يقرون على شك منها ، لا في قول يقال : ولا في نص يروى .

فقد حدثوا أن جارية غنت في مجلس الواثق بقول الشاعر (٢) :

(١) فتح البلدان : ٣٨٤ والإصابة رقم : ٤٩٦٣ .

(٢) هو العرجي في درة الغواص : ٤٣ ، والحارث الخزومي في الخزانة : ٢١٧/١ وانظر

إنباء الرواة : الصلب والحاشية : ٢٤٩/١ .

أظلم إن مصابكم رجلاً أهدى السلام تحية ظلم
فأنكر عليها بعض أهل المجلس أن نصبت (رجلاً) في البيت ، بظن
أنه خبر إن ، فالوجه رفعه : والصواب أنه مفعول به للمصدر مصاب ؛
لأنه بمعنى إصابة ، وأبت الجارية أن تغير الضبط ، وقالت : إنها قرأته
هكذا على أبي عثمان المازني ، فاستقدم الخليفة المازني من البصرة ، فأيد
رواية النصب وشرح وجهه .

وقد وردت روايات كثيرة تعزو وضع النحو إلى أبي الأسود ،
بلا خلاف بينها ، إلا في سبب وضعه والمضى فيه : أكان إحساساً
مضروته . أم كان إشارة من عمر^(١) . أم من الإمام علي^(٢) . أم من
زياد^(٣) .

ويبدو أن الأمر شبه على القائلين بإشارة عمر ، وإشارة زياد ،
فحسب الأولون أن عهد عمر إلى أبي الأسود في تعليم الإعراب - يعني
إشارة بوضع النحو ، وحسب الآخرون أن نقط أبي الأسود للمصحف
في عهد زياد هو الإشارة بوضعه . أما القائلون بإشارة الإمام علي فلم
يُعدوا ، لأن أبا الأسود كان من أخص شيعته المقربين ، فمن الطبيعي أن
يكون علي صلة ما بنحو أبي الأسود ، إشارة به ، أو إرشاداً فيه .

(١) نزعة الألبا : ٧ - ٩ .

(٢) طبقات القراء : ١ / ٣٤٥ .

(٣) مراتب الحوئين : ٩ .

ويُروى أن واضح النحو هو الإمام نفسه ، وأن أبا الأسود أخذه عنه^(١) . ولا يتعاضم الإمام أن يضع النحو لو أراد ، فعبقريته لا خلاف عليها ، لكن الأعباء التي كان يضطلع بها أثقل من أن تتيح له التفكير في ذلك ؛ إذ كان - كرم الله وجهه - موزع الجهد والفكر لتثبيت دعائم الدولة ، وإقامة أحكام الدين ، وتدابير شئون الرعية ، وإحباط المكابدة . وفي أخبار أبي الأسود شواهد تدل على أنه كان - كما توسم فيه عمر - صاحب حس لغوي مرهف ، يستطيع به تمييز الأساليب بعضها من بعض ، وإدراك ما يكون بينها من أوجه الخلاف والمشابهة ، وما يكون لذلك من أثر في المعنى صحة وفساداً .

فقد رووا أن أصهاره من بني قشير كانوا يعلمون مبلغ حبه وإخلاصه للإمام علي . وأنهم كانوا - إغماظة له - ينالون من الإمام بحضرته ، فقال في ذلك قصيدة ينكر إساءتهم له ، ويؤكد وفاءه بالعهد وإخلاصه للعقيدة ، ومنها في آل البيت :

أحب محمداً حباً شديداً وعباساً وحمزة والوصياً
بني عم النبي وأقريبه أحب الناس كلهم إلياً
فإن يك حبيهم رشداً أصبه ولست بمخطئ إن كان غياً

فقال بنو قشير : شككت يا أبا الأسود في صاحبك حيث تقول :
فإن يك حبيهم رشداً أصبه .

(١) إنباء الرواة : ٥/١ .

فقال أبو الأسود : أما سمعتم قول الله عز وجل : (وإنا أويناكم لعلى هدى أو فى ضلالٍ مبين) (١) . فأبو الأسود يعلم من أسرار البيان ما لا يعلمون ، وأحاطهم فى الحجاج على الآية لعلهم يفهمون أن الكلام قد يكون فى ظاهره شكاً ، وما هو فى حقيقته بشك ، ولكنها التورية اللطيفة يُصار إليها أحياناً .

ويصف أبو الأسود مبلغ حسه اللغوى من الرقة وصدق التمييز ، فيقول : إلى لأجد للحن غمراً كغمر اللحم (٢) .

ويذكر ابن النديم أنه رأى أربع ورقات يحسبها من ورق الصين ، ترجمتها : هذه فيها كلام فى الفاعل والمفعول من أبى الأسود - رحمة الله عليه - بخط يحيى بن يعمر ، وتحت هذا الخط بخط عتيق : هذا خط علان النحوى ، وتحت هذا الخط النصير بن شمبل (٣) . وهذا كلام رجل ثقة لا يحدث بما سمع ، ولكن بما رآه رأى العين .

ويذهب بعض الباحثين إلى أن أبا الأسود كان على صلة بالسريانية ، والأرجح أنه قد تعلمها (٤) ، ورأى آخر : أن يعقوب

(١) الأغاني : ١١٢/١١ ، ١١٣ ، والآية فى سورة سبأ : ٢٤ .

(٢) طبقات النحويين : ١٥ ، والقمر ، بالتحريك : الدسم ورهومة اللحم .

(٣) الفهرست : ٦٠ ، ٦١ .

(٤) اللغة والنحو : ٢٥٠ ، ٢٥١ .

الرهاوي كان معاصراً لأبي الأسود ، وأن له كتاباً في نحو السريانية^(١) . وكلا المقولين يشعر بأن النحو العربي ليس عربياً صريحاً ، وأن أبا الأسود قد أفاد له من السريانية على نحو ما ! وهو كلام يقوم - كما ترى - على مجرد الظن ، ويكثر ترداد مثله كلما ذكرت أوليات علوم العرب . كأنما كُتب عليهم من بين خلق الله أن يكونوا أبدأ تلاميذ لغيرهم في العلوم ، وهو كلام يمكن قبوله والتسليم به حين يكون له سند غير المبدس والتخمين .

وتقتضى طبيعة الأشياء أن يكون ما وضعه أبو الأسود من النحو مجرد ملاحظات يسيرة ، هُدى إليها بالنظر في الأساليب واستقرائها على قدر الطاقة في المقامات المتنوعة ، وتيسر له بفضلها أن يستنبط منها ضوابط لا تبلغ مبلغ القواعد التي تُقرر الأحكام في أطراد وشمول . ومن يكن مثل أبي الأسود في سلامة الفعارة والظن الحس لا يستحصى عليه أن يهتدى إلى هذه الأوليات وزيادة . وما كان الخليفة عمر ليختاره معلماً للإعراب إلا وهو صالح له ، وكاف فيه ! وقد كانت العرب أو أناس منها يدركون فروق المعاني المختلفة في العبارات التي تختلف فيها حركات الإعراب أو طرائق التعبير تقديمياً وتأخيراً ، وذكراً وحذفاً . ومن ذلك أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى : (. . . أن الله برئء من المشركين ورسوله)^(٢) بجرلام رسوله ، فقال الأعرابي : أو برئء الله

(١) مجلة مجمع اللغة العربية : ٢٤٨/٧ . (٢) التوبة / ٣ .

من رسوله^(١) . ويقول سيويه ، فيما يقول : ليس من العصية إذن ولا
 من التجنى على الحقيقة أن نقول مع القائلين : إن النحو العربي عربي
 النسب ، وما هو بالدخيل ولا المهجين .

(١) صبح الأعشى : ١ / ١٢٩ .

النحو وأشهر النحاة

من أبي الأسود إلى سيويه

لم يكد أبو الأسود يضع النحو . ويعلم الناس نبأه عنه حتى أقبل تلاميذه عليه . يأخذون عنه ، ثم يأخذ تلاميذهم عنهم من بعده . وهكذا جعل النحاة يتتابعون مع الأيام طبقات ، يأخذ اللاحقون منهم عن السابقين ، وجعل النحو ينمو غرسه ، ويشتد عوده دراكاً عصراً بعد عصر . حتى كأن القوم قد أعدهم الله له من قبل على أفضل ما يكون الإعداد ، فما بهم إلا أن تومض ومضة البدء ، وتشير إشارة التوجيه ليمضوا به خفافاً ، فإذا هم بعد قليل قد طَوروا به شوطاً بعيداً لم يكن ليلغه لولا العمل الدائب والجهد المتصل .

فهذا بلال بن أبي بردة والى البصرة يدعو إلى مجلسه عبد الله ابن أبي إسحق وأبا عمرو بن العلاء ، وهما من رواد النحاة ، ليتناظرا بين يديه . ثم يقول أبو عمرو عما انتهت إليه المناظرة : « فغلبني ابن أبي إسحق بالهمز »^(١) فقد اتسع ميدان النحو يومئذ حتى سمح لهذين العالمين الجليلين أن يتجاولا فيه جولات متكاملة ، يتحقق بها الغلب

(١) طبقات النحويين : ٢٥ .

والهزيمة ، ولم يكن مَبْصِي على ظهوره إلا قرابة أربعين عاماً ، إذ كانت وفاة أبي الأسود سنة ٦٩ ، وولاية بلال سنة ١٠٩ .

وستترجم هنا أبا الأسود ، وأشهر النحاة الذين جاءوا من بعده إلى سيويه بترتيب سني الوفاة :

١- أبو الأسود :

المشهور أن اسمه ظالم بن عمر^(١) ، يرتفع نسبه إلى الدئل بن بكر ، وإليه ينسب ، ولد بمكة ، ورحل إلى المدينة ، فروى عن عمر ، وقرأ على عثمان وعلى^(٢) ، ثم أشخصه عمر إلى البصرة في ولاية أبي موسى الأشعري ليعلم الناس الإعراب^(٣) . وولاه الإمام قضاء البصرة ، ثم جعله والياً عليها بعد ابن عباس حين خرج إلى مكة مفاضباً للإمام^(٤) . وتوفى أبو الأسود بالبصرة سنة ٦٩ .

وكان - رحمه الله - من أوفى الشيعة للإمام ، وأشدّهم إخلاصاً له ، وهو الذي وُضِعَ النحو ، وضبط المصحف الشريف . ومن

(١) الأنساب : ٢٣٣ ، وتاريخ ابن عسّكر : ٤٨٨/١٨ .

(٢) طبقات القراء : ٣٤٦/١ .

(٣) إنباه الرواة : ١٦/١ .

(٤) طبقات ابن سعد : ٧ ، والإصابة : ٣٠٤/٣ ، وإنباه الرواة : ٣٨٠/١ .

قراءاته : (أَلَّا إِتَّخَذُوا صُدُورَهُمْ) و (هَيْتَ لَكَ) ^(١) .
 ومن الذين أخذوا عنه يحيى بن يعمر المتوفى سنة ١٢٩ ، وميمون
 الأقرن ، وعنبسة الفيل ، ولسنا نعرف عن نحوهم شيئاً . ولا نجد لهم
 ذكراً في كتاب سيويه ، ولا عنهم رواية فيه .

٢- عبد الله بن أبي إسحاق :

هو عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي ، أخذ عن يحيى بن يعمر
 ونصر بن عاصم ، ويقولون : إنه قرع النحو . وأعمل القياس فيه ،
 ودرس الهمز ، وله فيه كتاب . وتوفى سنة ١١٧ ^(٢) .
 ومن تقول سيويه عنه : أنه كان يقرأ آية (يَالْتِنَّا تُرْدُ وَلَا نُكَذِّبُ
 بآيات ربنا) الأنعام/٢٧ بنصب نكذب .

٣- أبو عمرو بن العلاء :

اسمه كنيته على المشهور ، وقيل : اسمه زيان ، ولد بمكة سنة ٦٨ ،
 ونشأ في البصرة ، وأخذ عن عبد الله بن أبي إسحاق ، ويحيى بن يعمر ،
 وقرأ على أنس بن مالك ، والحسن البصري .

(١) المحصب ٢/٣١٨ ، ٣٣٧ والأولى من سورة هود من آية (٥) والأخرى من سورة
 يوسف من آية (٢٣) .

(٢) مراتب النحويين : ١٢ ، وإنباء الرواة : ٢٠٧/١ .

وهو من القراء السبعة ، وكان إمام أهل البصرة في القراءات والنحو واللغة وأيام العرب والشعر ، مع الصدق والثقة والزهد ، وكان من أشراف العرب ووجهاتها . وتوفي سنة ١٥٤ (١) .

ونقل عنه سيويه أكثر من أربعين نقلاً ، معظمها من طريق يونس ابن حبيب ، ومنها : قوله عن المستثنى بإلا حين يكون الكلام تاماً منقياً : الوجه ما أتاني القوم إلا عبد الله . ولو كان هذا بمنزلة أتاني القوم ما جاز أن تقول : ما أتاني أحد ، كما أنه لا يجوز أتاني أحد (٢) . وقوله : واعلم أن ما كان صفة للمعرفة لا يحسن أن يكون حالاً يتصبب انتصاب النكرة (٣) .

٤- الخليل :

هو الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي . ولد سنة ١٠٠ . وأخذ عن أبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر ، وغيرهما ، وخرج إلى البادية يشافه أهلها ، ويأخذ عنهم اللغة ، ويُعد الخليل من أفذاذ التاريخ ، وأصحاب الأوليات في العلوم . آتاه الله حساً لغوياً مدرباً ، وذهناً رياضياً بارعاً ، وذوقاً موسيقياً

(١) مراتب النحويين : ١٣ ، وطبقات النحويين : ٢٨ ، وطبقات القراء : ٢٨٨/١ .

(٢) الكتاب : ٣٦٠/١ .

(٣) الكتاب : ٣٦٠/١ .

مرهفأ ، فبلغ الغاية في النحو ، وابتخه العروض وخرج به على الناس علمأ كاملاً ، كما ابتخه طريقة تدوين المعاجم ، واستنبط من النحو في أصوله وفروعه وعلة وأقيسته مالم يسبقه إليه سابق . ونقل عنه سيويه أكثر من خمسمائة نقل . وكان - رحمه الله - عفيفأ زاهدأ متقشفأ ، قضى حياته منقطعأ للعلم والتعليم ، وتوفى سنة ١٧٥^(١) .

٥- يونس بن حبيب :

هو أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب الضبي ، ولد سنة ٩٠ ، وأخذ عن أبي عمرو ، ويقولون : إنه كان صاحب قياس في النحو ، وله مذاهب تفرد بها . وقد نقل عنه سيويه نحو مائتي نقل . وأكثر ما نقل عنه بابان من التصغير ، فقال : وجميع ما ذكرت لك في هذا الباب ، وما أذكره لك في الباب الذي يليه قول يونس^(٢) . وتوفى سنة ١٨٢ .
ومما نقل عنه قوله : « وسمعنا بعض العرب يقول : (الحمد لله رب العالمين) فسألت عنها يونس فزعم أنها عربية »^(٣) وقوله : « ومن ذلك قول العرب : من أنت زيدأ ؟ فزعم يونس أنه على قوله : من أنت

(١) مراتب النحويين : ٢٧ - ٤١ ، وطبقات النحويين - ٤٣ - ٤٧ ، وإنباء الرواة :

٣٤/١ - ٤٧ .

(٢) الكتاب : ١٠٩/٢ . ونشأة النحو : ٨١ .

(٣) الكتاب : ٢٤٨/١ .

تذكر زيداً ، ولكنه كثر في كلامهم ، واستعملوا واستغنوا عن إظهاره (١) .

٦- سيويه :

هو عمرو بن عثمان بن قنبر . وسيويه لقبه الذي لا يكاد يُذكر أو يُعرف إلا به . ولد بالبيضاء إحدى مدن فارس ، ونشأ وأقام بالبصرة ، وأخذ عن الخليل ، وأطال ملازمته ، وكان أحب تلاميذه إليه . وأخذ كذلك عن عيسى بن عمر ، ويونس بن حبيب ، وغيرهما . وهو صاحب أعظم كتاب في النحو ، وأبقاه على الأيام . وتوفي سنة ١٨٠ (٢) .

كتاب سيويه : لم يُسمَّ سيويه كتابه . ولا جعل له مقدمة ولا خاتمة ، ولعله كان على نية العود إليه لبعض الأمر ، لكن عائقاً حال دون ما كان ينويه . ومن قبل سمي عيسى بن عمر كتابين له ، أحدهما الإكمال ، والآخر الجامع .

على أن القدماء سموه عنه ، إذ أطلقوا عليه اسم الكتاب غير موصوف بوصف ، ولا معين بإضافة ، فكان إذا ذكر لفظ الكتاب مجرداً فهو كتاب سيويه ، كأنها هو وحده الكتاب على الحقيقة ،

(١) الكتاب : ١٤٧/١ .

(٢) مراتب النحويين : ٦٥ وطبقات النحويين : ٦٦ . وإنباه الرواة : ٣٤٦/٢ .

وما سواه فكتاب على المجاز ا

وسبويه لا يقرر في الكتاب قواعد ، ولا يشترط للأحكام شروطاً ، ولا يلتزم تعريف المصطلحات ، ولا ترديدها بلفظ واحد . وإنما الكتاب فيض غزير من الأساليب والمفردات . وبعض الأساليب مأثور ، وبعضه محدث ، يعرضها سبويه ليدرسها ويحللها ، ثم يقضى قضاءه فيها صحة أو خطأ ، حسناً أو قبحاً ، كثرة أو قلة ، وهكذا .

وهو في أثناء ذلك يعرض صنوفاً من سماعه ، وكثيراً من آراء شيوخه ، ولا سيما الخليل ، فينقلها ، أو يعلق عليها ، أو يجعل منها تماماً للمسألة التي يدرسها ، أو تأييداً لها ، وكذلك يزجي كثيراً من لغات العرب ، وفيضاً من الشواهد المتنوعة ، بعضها آيات من القرآن الكريم ، وعدتها : ٣٧٣ ، ولا يفوته أن يذكر قراءاتها عند الحاجة إليها ، وبعضها الآخر من الشعر ، وعدتها ٨٧١ ، ومن الرجز ، وعدتها ١٩٠ ، ولا يفوته أن يصبح نسبة الشواهد التي يرى أنها منسوبة إلى غير أصحابها (١) .

تلك عدة شواهد سبويه بحسب إحصائي لها وبعض شواهد من الشعر والرجز غير منسوب إلى قائله ، لكن العلماء يثقون بشواهد كلها ، ويتقبلونها عنه بقبول حسن . وله شواهد من الأحاديث النبوية ، لكنه لا يذكرها بما يدل على أنها أحاديث ومنها :

(١) الكتاب : ١ / ٣٤٦ .

- ١- سُوحَا قُدُوسَا رَبِّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ (١) .
- ٢- مَا مِنْ أَيَّامٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ فِيهَا الصَّوْمُ مِنْ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ (٢) .
- ٣- كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، حَتَّى يَكُونَ أَبَوَاهُ هُمَا يَهُودَانِهِ ، وَيُنَصِّرَانِهِ (٣) .

ويغلب على عبارة الكتاب التلاحم والانسياب ، حتى ليقبل أن تمر فيها بمقطع يحسن الوقف عليه إلا حين يصرف القول عن وجهه إلى شاهد يرويه ، أو سؤال يسأله ، أو حوار يُديره . وهي واضحة بينة حيناً ، وغامضة مبهمّة حيناً آخر . ولا يلتزم الذهاب بها إلى معناها قصداً ، فرمما طاب له الاستطراد إلى غير ما يكون فيه من مقام كاستطراده من القول في الاشتغال إلى القول في صيغ المبالغة (٤) .

ولا يكتفي سيبويه بواقع النصوص في استنباط الأحكام ، ولكنه يلجأ أحياناً إلى فرض الفروض ثم يشّرع لها إكمالاً لصور عقلية تتمثل في ذهنه ، أو تداركاً لما فات النصوص أن تلم به . كذلك لا يقتصر على مسائل النحو والصرف ، بل يزيد عليها مباحث قيّمة رآها موصولة الأسباب بها ، ونقلها العلماء من بعده إلى

(١) الكتاب : ١٦٤/١ ، والحديث في صحيح مسلم : ٥١/٢ .

(٢) الكتاب : ٣٢/١ ، والحديث في الجامع الصغير بشرح السراج المنير : ٢٥٥/٣ .

(٣) الكتاب : ٣٩٦/١ ، والحديث في التجريد الصريح : ٩٣/١ .

(٤) الكتاب : ٥٦/١ .

علوم أخرى . ونكتفي هنا ببيان مواطن بعض هذه المباحث من الكتاب ، ومواطنها من الكتب التي نقلت إليها ، وليست من كتب النحو والصرف .

لقد نقل عبد القاهر إلى أسرار البلاغة^(١) من باب استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى^(٢) ، ونقل ، إلى دلائل الإعجاز^(٣) من باب من النكرة يجرى مجرى ما فيه الألف واللام^(٤) ، ومن باب ما يحسن عليه السكوت^(٥) .

ونقل الثعالبي إلى أسرار العربية^(٦) من باب مجازى أو آخر الكلم من العربية^(٧) ، وباب الحروف التي يجوز أن يليها بعدها الأسماء^(٨) . . . وباب ما لفظ به مما هو مثني^(٩) . . .
وتحدث سيويه في باب الإدغام حديثاً بارعاً عن حروف المنجاء

(١) أسرار البلاغة . ٣٤١ .

(٢) الكتاب : ١٠٨/١ .

(٣) دلائل الإعجاز : ٢٣٣ ، ٢٤٧ .

(٤) الكتاب : ١٦٦/١ .

(٥) الكتاب : ٢٨٤/١ .

(٦) أسرار العربية : ٣٢٢ .

(٧) الكتاب : ٧/١ وما بعدها .

(٨) الكتاب : ٤٦٠/١ .

(٩) الكتاب : ٢٠١/٢ .

وعددتها ، أصولاً وفروعاً ، وعن مخارجها وأنواعها ، من مجهور ومهموس وشديد ورنحو^(١) . . .

ونلاحظ أن سيويه لم ينقل عن شيوخه في هذه الأبواب التي ذكرناها : فهل علينا إذا قلنا : إن سيويه هو واضع البلاغة والتجويد^(٢) ؟ .

وسيويه بعد هذا يشقُّ الموضوعات المتشعبة ، ويفرقها على عدة أبواب : فعرض الاستثناء في سبعة عشر باباً^(٣) ، والترخيم في اثني عشر^(٤) . ثم هو يذكر بعض الأبواب في غير المواقع التي تجانسها . فوضع القسم وحروفه بين التصغير ونونى التوكيد^(٥) .

وبعد ، فلا تعرف العربية كتاباً حقل به الناس ، وأفادوا منه على تماقب الأجيال ككتاب سيويه . فقد ألفوا عنه كتباً ، وأداروا حوله دراسات لا تحصى كثرة .

ألفوا في شرحه ، والتعليق عليه ، والتهديد له ، وترتيب مسائله ، وحل مشكلاته ، وتوضيح غريبه وشرح شذوائده ، وتجريد أحكامه .

(١) الكتاب : ٤٠١/٢

(٢) تاريخ البلاغة والتعريف برجالها : ٤٣ .

(٣) الكتاب : ٣٥٩/١ .

(٤) الكتاب : ٢٣٢/١ وما بعدها .

(٥) الكتاب : ١٤٣/٢ ، وانظر سيويه إمام النحاة : ٨٩ - ١٩٢ .

اختصروه ، واختلفوا فيه ما بين متعصب عليه ، ومتعصب له ،
وانتصر لهؤلاء أنصار ومؤيدون ومنهم من انقطع له حتى حفظه أو أتقن
فهمه وتخصص فيه .

ولم يقدر لسيبويه أن يقرأ الكتاب على أحد أو أن يقرأه عليه أحد ،
وإنما قرأه الناس بعده على أبي الحسن الأخفش ^(١) : فقد ورث - رحمه
الله - علم سيبويه ، وكان طريق الناس إليه ؛ كما حمل سيبويه علم
الخليل ، وكان طريق الناس إليه .

(١) أخبار النحويين البصريين : ٥٠ .

النحو وأشهر النحاة

فيما بين سيويه وانقسام الدولة العباسية

لم يَشَقَّ النحاة بعلاج النحو بعد أن جاءهم كتاب سيويه . فقد يَسَّر لهم سبيله ، بما أصل من أصول ، واستخرج من كنوز ، وأقام من حُجج ، وقَدَّم من شواهد ، واتمس من علل . فلم يَدْعُ لهم إلا أن يدرسوه ، ويروا رأيهم فيه نقداً وخلاقاً ، أو مناصرة وتأييداً ، وإلا أن يستوحوه ويستمدوا لمصنفاتهم منه .

وهذا ما كان ، فإذا كنا منهم أصناف من الكتب ، أبين طريقاً ، وأقوم تنسيقاً . وليست - مع ذلك - تخلو من رأى سديد ، أو حجة قاصدة ، أو علة ناهضة ، أو شاهد لا مَعْمَز فيه . وليس ذلك منهم بالعمل القليل ، ولا هو بالأمر اليسير ، فتلك غاية ما تقضى به داعية الحال ، وسنة التطور الذي أحدثه كتاب سيويه في عالم النحو والنحاة . والآن هلم إلى طائفة من أشهر نحاة هذه الحقبة .

١- الأَخْفَش :

هو سعيد بن مسعدة ، الملقَّب بالأخفش ، أصله من مَنبِج ، ثم

سكن البصرة ، وأخذ عن سيبويه وكان يقول : ما وضع سيبويه شيئاً في كتابه إلا عرضّه على . وكانت له مكانة رفيعة في النحو بين البصريين والكوفيين . قرأ النحو على سيبويه ، وهو وحده طريق الناس إلى كتابه ، توفي سنة ٢١٥ على التقريب (١) .

ومن مؤلفاته في النحو . كتاب المقاييس ، والاشتقاق . وله آراء مثورة في كتب النحو منها : أنه يُجيز جمع أسماء العدد ، ولا يجيز غيره أن يُجمع منها إلا المائة والألف (٢) .

٢- المازني :

هو أبو عثمان بكر بن محمد بن بنية ، قرأ كتاب سيبويه على الأخفش . وكان إماماً في اللغة ، وراويّة واسع الرواية ، كما كان يارعاً في الحجاج والمناظرة ، توفي سنة ٢٤٩ ، وقيل غير ذلك (٣) .

ومن كتبه : علل النحو ، وتفسير كتاب سيبويه ، والتصريف ، وقد شرحه ابن جنّي ، وهو مطبوع . ومن آرائه النحوية أن جمع المؤنث يجب بناؤه على الفتح مع لا النافية للجنس (٤) .

(١) مراتب النحويين : ٦٨ ، وأخبار النحويين البصريين : ٥٠ ، وبنية الوعاة :

٥٩٠/١ .

(٢) الجمع : ٤٣/١ .

(٣) طبقات النحويين واللفويين : ٩٢ ، وبنية الوعاة : ٤٦٣/١ .

(٤) الجمع : ١٤٦/١ .

٣- المبرد :

هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر ، ولد سنة ٢١٠ ، ونشأ بالبصرة ،
سمع الكتاب من الجرمي ، وأتمه على المازني . وكان إمام العربية في
عصره ، توفي سنة ٣٨٦^(١) .

ومن مؤلفاته : المقتضب ، وإعراب القرآن ، والكامل في فنون من
اللغة والأدب والنحو . ومن آرائه في النحو : أن المصدر المؤول من أن
ومعمولها بعد لو يعرب ، فاعلاً لثبت محذوفاً^(٢) .

٤- الزجاج :

هو أبو إسحاق إبراهيم بن السريّ الزجاج ، كان أول أمره يخرط
الزجاج ، ثم مال إلى طلب النحو ، فلزم المبرد يأخذ عنه ، ثم اتصل
بالمكتبي ، وصار نديماً له ، وتوفي سنة ٣١٠^(٣) .

ومن كتبه : الاشتقاق ، وفعلت وأفعلت ، وشرح أبيات سيوبه .
ومن آرائه النحوية : جواز إعمال لعل وكان حين تتصل بهما ما^(٤)

(١) أخبار النحويين البصريين : ٥٩٦ ، طبقات النحويين : ١٠٨ .

(٢) الجمع : ١٣٨/١ .

(٣) أخبار النحويين البصريين : ١٠٨ ، وبغية الوعاة : ٤١١/١ .

(٤) الجمع : ١٤٣/١ .

النحو الكوفي وأشهر علمائه

بدأ اشتغال الكوفة بالنحو في حياة الخليل : أي بعد وفاة أبي الأسود بنحو تسعين عاماً ، فقد كانت وفاته سنة ٦٩ ، وكانت الكوفة في خلال هذه المدة عاكفة على القرآن الكريم ، تقرؤه وتقرئه . وعلى الشعر ترويه وتتناشده ، ولذا كان فيها ثلاثة من القراء السبعة ، هم : عاصم المتوفى سنة ١٢٩ ، وحمزة المتوفى سنة ١٥٦ . والكسائي المتوفى سنة ١٨٦ ، وفي كل مصر قارئ واحد . أما النحو فكانت - على ما يبدو - قانعة منه بما يجيئها من البصرة ، ثم انتبعت إليه وشغلت به . وأشهر علمائها فيه :

١- معاذ الهراء :

هو أبو مسلم معاذ الهراء ، نشأ بالكوفة ، وكان يبيع للثياب الهروية ، فحرف بها . أخذ عنه الكسائي والفراء ، ويقال : إنه أول من وضع التصريف . وتوفى سنة ١٨٧^(١) .

٢- الكسائي :

هو أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي . إمام نحاة الكوفة ، وأحد

(١) الفهرست : ٩٦ ، وإنباء الرواة : ٢٨٨/٣ ، وبغية الوعاة : ٢٩٠/٢ .

القراء السبعة ، نشأ بالكوفة ، وأخذ عن الهراء ، والخليل . وأقرأه
الأخفش كتاب سيويه ، ورحل إلى البادية فحفظ كثيراً من اللغة ،
وعهد إليه الرشيد في تأديب الأمين والمأمون . توفي سنة ١٨٩ ، ومن
كتبه : معاني القرآن ، ومختصر النحو ، ويُعد الكسائي إمام نحاة
الكوفة (١) .

ومن آرائه النحوية : جواز إعمال اسم الفاعل وهو ماضي
الزمن (٢) .

٣- القراء :

هو أبو زكريا يحيى بن زياد الديلمي ، وُلد بالكوفة ، وأخذ عن
الكسائي ، وعن يونس بن حبيب . وكان أبرع الكوفيين في علمهم .
وتوفي سنة ٢٠٧ (٣) .

ومن كتبهِ : معاني القرآن ، والمذكر والمؤنث ، والمقصور والممدود .
ومن آرائه النحوية : أن الاسم الذي بعد لولا ليس مبتدأ ، بل مرفوع
بها ، لاستغناؤه بها كما يرتفع الفاعل بالفعل (٤) .

(١) طبقات النحويين : ١٣٨ ، وطبقات القراء : ٥٣٥/١ .

(٢) شرح التصريح : ٦٦/٢ .

(٣) مراتب النحويين : ٨٦ ، وطبقات النحويين : ١٤٣ .

(٤) الجمع : ١٠٥/١ .

٤- لعلب :

هو أحمد بن يحيى المعروف بثلعب ، ولد سنة ٢٠٠ ، وأخذ عن محمد بن سلام الجُمَحي ، ومحمد بن زياد الأعرابي وغيرهما ، ودرّس كتب الكسائي والفراء ، وقرأ كتاب سيويه على نفسه . وهو من أئمة الكوفيين في النحو ، ومات سنة ٢٩١ . ومن كتبه : اختلاف النحويين ، ومعاني القرآن ، وما ينصرف وما لا ينصرف (١) .
ومن آرائه : أنه إذا سُمي مذكر بمؤنث مجرد من التاء فإن كان ثلاثياً منع من الصرف سواء أكان محرك الوسط كفَخِد أم ساكنه كحَرَب (٢) .

(١) طبقات النحويين : ١٥٥ ، وإليه الرواة : ١٣٨/١ ، وبغية الوعاة : ٣٩٦/١ .

(٢) شرح الأئمة : ١٩٢/٣ .

مدرستا البصرة والكوفة

نشأ النحو في البصرة . وأقبل علماءها عليه . يتدارسونه طبقة بعد طبقة ، ويضيفون إلى ما بين أيديهم منه كل ما عسى أن يفتح الله عليهم به . أما أهل الكوفة فكانوا منقطعين للقرآن والشعر ، كما ذكرنا آنفاً ، حتى إذا كان منتصف القرن الثاني تقريباً - تبينوا أن البصرة قد عظم قدرها ونبه ذكر علماءها ، بفضل ما صنعوا ويصنعون للعربية - هنالك هبوا يحاولون أن ينافسوهم ؛ ليكون لهم من الفضل مثل ما لهم . ولما لم تكن لهم سابقة في النحو - لم يجدوا بداً من أن يشجها إلى البصرة ، يطلبون فيها علم ما لا يعلمون : فذهب إليها الكسائي فيمن ذهب ، وأخذ عن الخليل ويونس ، ثم قرأ عليه الأخفش كتاب سيبويه . واصطحب الفراء كتاب سيبويه حياته ، لا يكاد يفارقه . كان نحو الكوفة إذن شعبة من نحو البصرة ، ثم تحول عنه في أصوله ، ومناهج درسه ، لاختلاف الأئمة هنا وهناك في مصادر الرواية والرأى فيها ، ثم في سمات الشخصية وطرائق التفكير . فكان للنحو مدرسة في البصرة ، وأخرى في الكوفة . وقدّر لنحو البصرة أن يكون أكثر تداولاً ، وأخلد خلوداً .

وأهم الفروق التي بين المدرستين : أن شيوخ البصرة كانوا لا يروون

إلا عن العرب الخالص الضاربين في أعماق الصحراء ، ولا يقبلون الشاهد إلا إذا وثقوا به ؛ لهذا نرى سيويه يردّد لفظ الثقة ومشتقاته فيما يروى وما يسمع من الشواهد ، كأنما يريد أن يطمئن أصحابه إلى أنه أخذ على الطريقة التي يتوارثونها . بل لم يكن يفوته أن ينبه على المصنوع من الشواهد أيضاً^(١) . أما الكوفيون فكانوا أقل تخرجاً في الرواية ، وأكثر ترخصاً في الاستشهاد .

وأخرى : أن البصريين كانوا يقيمون قواعدهم على الأكثر في اللغة ، ويأبون أن يتخذوا مادونه مصدراً لاستنباط ، ولا سنداً لرأى . أما ما يخالف الأكثر فربما أولوه بما يردّه إليه وربما عدوه من الضرورات التي لا يصر إليها في الاختيار ، وربما نحوّه جانباً ، وحكموا عليه بالشذوذ .

ويبدو أن أبا عمرو هو صاحب هذا الأصل : فقد سئل عما وضعه العربية : أيدخل في كلام العرب كلبه ؟ قال : لا ، قيل له : فكيف صنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ قال : أعمل على الأكثر ، وأسمى ما خالفتني لغات^(٢) .

أما الكوفيون فكانوا يأخذون اللغة من حيثها وجدوها ، وكانوا كلما

(١) الكتاب : ١ : ٢٦ - ١٥٣ .

(٢) طقات النحويين : ٤٣ .

عَرَضَ لَهُمْ شَاهِدٌ قَبْلَهُ . وَوَلَدُوا مِنْهُ حَكَمًا لَهُ مَا لَسَاثِرَ الْأَحْكَامِ ^(١) . وَمِنْ
 أَمْثَلَةِ الْفَرْقِ فِي هَذَا بَيْنَ الْمُدْرَسَتَيْنِ : أَنَّ الْبَصْرِيِّينَ لَا يَجِيزُونَ تَقْدِيمَ الْفَاعِلِ
 عَلَى فِعْلِهِ ، وَلَا يَمْنَعُهُمْ مِنْهُ قَوْلُ الزَّبَاءِ :
 مَا لِلْجِبَالِ مَشِيهَا وَثِيدًا أَجْنَدًا يَحْمَلْنَ أُمَّ حَدِيدًا ؟
 لِأَنَّهُمْ يَعُدُونَهُ مِنْ قَبِيلِ الضَّرُورَةِ . وَيَعْرَبُونَ (مَشِيهَا) مَبْتَدَأً حَذَفَ
 خَبْرَهُ ، وَسَدَّتِ الْحَالُ (وَثِيدًا) مَسَدَهُ . وَالتَّقْدِيرُ : مَشِيهَا يَظْهَرُ وَثِيدًا .
 أَمَّا الْكُوفِيُّونَ فَقَدْ أَخَذُوا بِالشَّاهِدِ ، وَأَجَازُوا تَقْدِيمَ الْفَاعِلِ عَلَى فِعْلِهِ ، كَمَا
 قَدِمَتْ (مَشِيهَا) عَلَى (وَثِيدًا) ^(٢) .

وَلَعَلَّ كَثْرَةَ مِمَارَسَةِ الْكُوفِيِّينَ لِلتَّلَاوَةِ وَالرَّوَايَةِ هِيَ الَّتِي أَوْرَثَتْهُمْ
 الْإِعْتِدَادَ بِظَاهِرِ النَّصِّ ، وَتَهَيَّبَ الْمَهْجُومَ عَلَيْهِ بِالتَّأْوِيلِ ، أَوْ الْإِنْكَارِ .
 وَهَذَا لَا يَعْنِي أَنَّ الْبَصْرَةَ كَانَتْ أَقْلَ مِنَ الْكُوفَةِ تَحْمُلًا لِلْقُرْآنِ وَرَوَايَةِ
 لِلشَّعْرِ ، فَقَدْ كَانَ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فِي عَهْدِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ
 زُهَاءً ثَلَاثِينَ ^(٣) . وَكُلُّ مَا كَانَ مِنَ الْأَمْرِ هُنَا وَهَنًا - أَنَّ الْكُوفَةَ آثَرَتْ
 الْعَافِيَةَ ، وَقَنَعَتْ بِمَا حَفِظَتْ ، وَاسْتَمْرَأَتْ الْإِنْقِطَاعَ لِلْمَعَاوِدَةِ وَالتَّكْرَارِ ،
 أَمَّا الْبَصْرَةُ فَقَدْ أُتِيحَ لَهَا الْحِفْظُ وَوَضِعَ النُّحُوفُ فَظَفَرَتْ بِالْحَسَنِيِّينَ . وَلَمْ تَجِدْ
 الْبَصْرَةَ حَاجَةً إِلَى الْأَخْذِ عَنِ الْكُوفَةِ ، إِلَّا أَبَا زَيْدٍ ، فَإِنَّهُ - فِيمَا يُقَالُ -

(١) المصع : ١ : ٤٥ .

(٢) شرح ابن عقيل ، وحاشية الخضرى : ١ : ١٤٤ .

(٣) حلية الأولياء : ١ : ٢٥٧ .

أخذ عن المفضل الضبي^(١)

ثم إن البصريين يقدمون السماع على القياس إذا تعارضوا^(٢) . أما الكوفيون فربما جعلوا كلمة القياس هي العليا وإن لم يعززه شاهد . فقد منعوا تقدم الخبر على المبتدأ مطلقاً . لئلا يتقدم الضمير الذي فيه على مرجعه . ففى قائم مثلاً من قولنا : قائم زيد ضمير زيد . ولم يأبهوا لتأخر الخبر رتبة وإن تقدم لفظاً ، ولا للمأثور من الشواهد^(٣) .

والآن هل للنحو مدارس أخرى ؟ ينبغى قبل الإجابة عن هذا السؤال أن أعرف المدرسة . فهى : طائفة من العلماء ، أو الأدباء ، أو أهل الفن تولى بينهم فى الإنتاج وصوره أصول ومناهج يلتزمونها ، مع احتفاظ كلِّ بخصائص شخصيته .

وهكذا كان أئمة النحو الأولون فى البصرة والكوفة إبان نشأته ، فخرج النحو الذى صدر عنهم صدى لما عند كل من الفريقين من مواهب . ولما أصل من أصول ، وما أمدته العرب به من لغة . ولما أن اشتد عوده ، ونضجت ثمرته ، وآل من بعدهم إلى خلفائهم - لم يجدوا به نقصاً فيتموه ، أو صدعاً فيرأبوه ، فلم يبق إلا أن ينظروا فى النحوين ، ويأخذوا لمصنفاتهم من كليهما أرجحهم عندهم . ومنهم من

(١) أخبار النحوين البصريين : ٥٧ .

(٢) الخصائص : ١ : ١١٧ .

(٣) الإنصاف : ٦٥/١ .

جَعَلَ النحْو البصرى أصلاً ، وزاد عليه مادعت إليه الحاجة من النحو الكوفي .

وهنا التقى النحوان بين أيديهم ، على سواء في الدرس والتحصيل ، واختلاف في مقدار النقل والاقْتباس من هذا وذلك تَلْفِيْقٌ للنحويْن أخذ النحاة به منذ القرن الثالث ، ولا يزال معمولاً به إلى اليوم ، فهل يصح أن نُطلق على أصحاب هذا التلْفِيْق اسم مدارس ، فنقول مثلاً : مدرسة النحو البغدادية ، أو مدرسة النحو المصرية ، كما جاء في كتاب المدارس النحوية ٢

يبقى بعد هذا أن النحويين القدماء يردُّون في كتبهم آراء يعزونها إلى من يصفونهم بالبغداديين . وقد فهم بعض الباحثين من هذا أن هؤلاء البغداديين يؤلفون مدرسة نحوية ثالثة ، لكن ثمة دلائل تدل على أن هؤلاء البغداديين هم الكوفيون الذين استقر المقام بهم في بغداد ، لأن وصفهم بالكوفيين مدعاة إلى اللبس والتخليط :

فالأخفش يقول عن سيوبه : مُنصرَفه من بغداد بعد مناظرته للكسائي : «وجه إلى فجته ، فعرفني خبره مع البغدادى^(١) ، ومن يكون هذا البغدادى ، إذا لم يكن هو الكسائي ؟ ويقول المبرد : ما رأيت للبغداديين كتاباً أحسن من كتاب يعقوب بن السكيت في

(١) طبقات النحويين واللغويين : ٧١ .

المنطق^(١) ، وابن السكيت كوفي^(٢) ويقول ابن جنى : لو قال قائل :
 المبتدأ مرفوع بما يعود عليه من ذكر لقلت : « هذا قول الكوفيين » ، ثم
 عاد فكرر العبارة في موضع آخر ، فقال : « ومن ذلك قول البغداديين :
 إنما الاسم يرتفع بما يعود عليه من ذكره »^(٣) .

ولئن كان نحو البصرة أحظى عند الناس - لقد كان نحو الكوفة
 أحظى عند الخلفاء ، إذ كانت الكوفة أقرب من البصرة إلى بغداد ،
 وفيها كانت البيعة للسفاح ، ولبثت بعض الوقت حاضرة الدولة . أما
 البصرة فقد ظهر فيها إبراهيم بن عبد الله بن الحسن يدعو لأخيه محمد .
 وكان قد خرج بالمدينة فاستجاب لإبراهيم كثير من أهل البصرة ، فاستولى
 عليها وعلى ما قرب من واسط والأهواز^(٤) .

لذلك اتبع للكوفيين أن يسبقوا إلى بغداد ، ففتح الخلفاء لهم
 أبوابهم . ووكّلوا إليهم تأديب أولادهم . فكان الكسائي في حاشية
 الرشيد ، ثم مؤدب ولديه^(٥) ، وكان الفراء مؤدب ولدى المأمون^(٦) ،

(١) وفيات الأعيان : ٥ : ٤٣٨ .

(٢) الفهرست : ١٠٧ .

(٣) الخصائص : ١ : ٨ ، ١٩٩ .

(٤) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية : ٣١ ، ٧٦ .

(٥) إنباه الرواة : ٢ : ٥٦ ، بغية الرواة : ١٦٣/٢ .

(٦) بغية الرواة : ٢ : ٣٤٩ .

وكان ابن السكيت ينادم المتوكل^(١) ، فأعظم الناس نحة الكوفة ، وأقبلت الدنيا عليهم . ولم يظفر البصريون الذين رحلوا إلى بغداد بمثل ما ظفر الكوفيون به ولا قريب منه ! فأخفق سيوبه في مناظرة الكسائي ، واتخذ الكسائي الأخفش مؤدباً لأولاده^(٢) ، وكان المبرد يعلم الزجاج النحو ، فيعطيه الزجاج كل يوم درهماً أجراً له^(٣) .

(١) طبقات النحويين : ٢٢١ .

(٢) بغية الوعاة : ١ : ٥٩٠ .

(٣) بغية الوعاة : ١ : ٤١١ .

النحو وأشهر علمائه

بعد انقسام الدولة العباسية

ضعفت الدولة العباسية . وتزايدت بنيتها . فطمع ولاة الأقاليم فيها ، وأوهنوا صلتهم بها . وكان آل بويه أجراًهم عليها ، فقد استولوا بفارس والجزيرة . ثم استولوا على بغداد . وسلبوا الخليفة سلطانه سنة ٣٣٤ .

فنشأت دويلات هنا وهناك : وتعددت الحواضر فيها والأمصار . ولم تبق بغداد - كما كانت قبلة العلماء ومن إليهم . فقد كان حكام الدويلات يجدون في تأثيل ملكهم . ويختدبون العلماء والشعراء إليهم فقصدوهم وأقاموا في ظلالهم قليلاً أو كثيراً . لذلك بقيت الحياة العلمية على قوتها ونشاطها ، بل لعلها زادت قوة على قوتها ونشاطاً على نشاطها .

أشهر نحاة شرق دجلة

١ - السيرافي :

هو أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي . ولد بسيراف . حوالي سنة ٢٨٨ ، وأخذ اللغة والنحو عن بعض علماء عصره . وكان عالماً حجة ، أميناً ديناً ورعاً . توفي ببغداد سنة ٣٦٨ .

ومن كتبه : شرح كتاب سيوبه ، والوقف والابتداء ، وأخبار
النحويين البصريين^(١) . وعنده أن كان الزائدة ترفع ضمير المصدر الذي
تدل عليه فاعلاً لها^(٢) .

٢ - الفارسي :

هو أبو علي الحسن بن أحمد الفارسي . ولد بفسا مدينة قريبة من
شيراز ، وأخذ عن ابن السراج وغيره . رحل إلى أقطار من الدولة ،
وتوفى ببغداد سنة ٣٧٧ . وله مصنفات كثيرة ، منها الإيضاح في النحو ،
والتكملة في الصرف ، والحجة في علل القراءات السبع^(٣) .
ومن آرائه أن الأسماء الستة لا تعرب بالحروف . ولكن بحركات
مقدرة عليها^(٤) .

٣ - ابن جني :

هو أبو الفتح عثمان بن جني ، نشأ بالموصل ، واتصل بأبي علي
الفارسي ، يأخذ عنه ويستمليه ، وتوفى سنة ٣٩٢ . ومن مؤلفاته :

(١) إنباء الرواة : ١ : ٣١٣ ، وبغية الوعاة : ١ : ٥٠٧ .

(٢) الجمع : ١ : ١٢١ .

(٣) طبقات النحويين : ١٠٣ ، وإنباء الرواة : ١ : ٧٣ .

(٤) الجمع : ١ : ٣٨ .

الخصائص ، وشرح تصريف المازني ، والمحتسب ، وهي مطبوعة ، ورسر
صناعة الإعراب ، وقد طبع منه جزء واحد^(١) .
ومن آرائه النحوية : أن إذا الفجائية ظرف مكان^(٢) .

٤ - الزمخشري :

هو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، ولد بِزَمَخْشَر سنة ٤٦٧
ورحل إلى خراسان والعراق ، وجاور بمكة المكرمة . وكان من أعلم
الناس بالنحو واللغة والتفسير ، وغريب الحديث . وتوفي بخوارزم سنة
٥٣٨

ومن كتبه : المفصل والنموذج في النحو ، وأساس البلاغة في اللغة ،
والفائق في غريب الحديث^(٣) ومن آرائه : أن لن تفيد توكيد النفي
وتأييده^(٤) .

(١) إنباه الرواة : ٢ : ٣٣٥ ، وبغية الوعاة : ٢ : ١٣٢ .

(٢) الهمع : ١ : ٢٠٧ .

(٣) إنباه الرواة : ٣ : ٢٦٥ ، وبغية الوعاة : ٢ : ٢٧٩ .

(٤) المغني : ١ : ١٢٤ .

النحو في مصر والشام وأشهر علمائه

شاء الله تعالى أن تكون مصر والشام صينوين . وكلما فرقت بينهما الأحداث غادت فجمعتها على المودة والإخاء ، لذلك سأجمع تراجم أشهر النحاة فيها ، كما تجمع تراجم أبناء الوطن الواحد .

١ - ابن بابشاذ :

هو أبو الحسن طاهر بن أحمد . أصله من العراق ، ونشأ بمصر ، وتصدر للإقراء في جامع عمرو بن العاص . ثم انقطع للعبادة . وتوفي سنة ٤٩٦ .

ومن مؤلفاته شرح جمل الزجاجي ، والمحتسب في النحو^(١) . ومن آرائه أن إذن تنصب الفعل مع الفصل ييبا وبينه بالنداء ، والدعاء^(٢) .

٢ - ابن مَعَط :

هو أبو الحسن بن زين الدين ، ولد بجلب سنة ٥٥٣ ، ورحل إلى

(١) إنباء الرواة : ٢ : ٩٥ ، وبنية الرواة : ٢ : ١٧ .

(٢) المغنى : ١ : ١٩ .

دمشق فأقرأ بها النحو ومصر. وتوفى في القاهرة سنة ٦٢٨ .
وله ألفية في النحو ، وحواش على أصول ابن السراج ، وكتب
أخرى^(١) . ويختار من أحكام النحو أن ينوب الجار والمجرور عن الفاعل
حين يجتمع هو والمصدر والظرف بعد فعل مبنى للمجهول^(٢) .

٣ - ابن يعيش :

هو موفق الدين بن علي المشهور بابن يعيش . ولد بحلب سنة ٥٥٣ ،
وأخذ عن علمائها ، وكان بارعاً في النحو والصرف . وتوفى بحلب
سنة ٦٤٣ .

ومن كتبه شرح التصريف لابن جنى ، وشرح المفصل
للزحشري^(٣) ، وهو يؤيد أن الفاء في مثل : (قل إن الموت الذي تفرون
منه فإنه ملائكم) واقعة في خبر إن لا زائدة^(٤) وهي من سورة الجمعة
من آية (٨) .

(١) بغية الوعاة . ٣٤٤/٢ . ونشأة النحو : ٢١٥ .

(٢) المعجم : ١ : ١٦٩ .

(٣) بغية الوعاة : ٣٥١/١ .

(٤) شرح المفصل : ١ : ١٣٤ .

٤ - ابن الحاجب :

هو عثمان بن عمر ، المعروف بابن الحاجب ، ولد بإسنا حوالى سنة ٥٧٠ ، ونشأ بالقاهرة ، ولازم الأخذ عن العلماء ، وكان من أذكى الناس ، فنبغ فى علوم شتى ، وغلب عليه النحو ، وتوفى فى الإسكندرية سنة ٦٤٦ .

ومن مصنفاته : الكافية وشرحها فى النحو ، والشافية وشرحها فى الصرف ، والأمالى . وغيرها ^(١) . وعنده أنه يجوز أن يكون خبر أن المذكورة بعد لو اسما إذا كان جامدا ^(٢) .

٥ - ابن هشام :

هو عبد الله جمال الدين بن يوسف الأنصارى . ولد بالقاهرة سنة ٧٠٨ ، وأتقن العربية حتى فاق أقرانه ، وتوفى بالقاهرة سنة ٧٦١ . وله مؤلفات كثيرة قيمة ، منها معنى اللبيب . وأوضح المسالك ، وشذور الذهب وشرحه ^(٣) .

ويعد المعنى أبرع كتبه وأنفعها ، فقد ضمنه شرحاً وافياً لخروف

(١) بنية الرعاة : ٢ : ١٣٤ .

(٢) المعج : ١ : ١٣٨ .

(٣) بنية الرعاة : ٢ : ٦٨ .

المعاني ، وأورد فيه كثيراً من القضايا ، مقرونة بالآراء التي قبلت فيها .
ثم مناقشة منصفة تؤيدها الشواهد والحجج ، وهو لا يميز ذكر أو بعد
سواء .

٦ - ابن عقيل :

هو أبو عبد الله بن محمد . أصله من همدان . ولد سنة ٦٩٨ ، وكان
إماماً في العربية . وتوفي سنة ٧٦٩ ، ومن كتبه شرح التسهيل ، وشرح
ألفية ابن مالك^(١) . وهو من أسهل كتب النحو وأشهرها .

٧ - الشيخ خالد الأزهرى :

هو خالد بن عبد الله ، ولد بجرجا ، ومهر في النحو وعلوم اللغة .
وأقرأ في الأزهر ، وإليه ينسب . وتوفي سنة ٩٠٥ . ومن كتبه : شرح
كتاب الإعراب عن قواعد الإعراب لابن هشام ، والتصريح بمضمون
التوضيح ، المشهور بشرح التصريح على التوضيح^(٢) . وهو أجل كتبه .

٨ - السيوطى :

هو عبد الرحمن جلال الدين بن أبي بكر . لازم أشياخه ، ينهل من

(١) بغية الوعاة : ٢ : ٤٧ .

(٢) الكواكب السائرة : ١ : ١٨٨ ، وشذرات الذهب : ٨ : ٢٦ .

معارفهم حتى تضلع ريباً . وانقطع للتصنيف ، فصنف قدراً عظيماً من الكتب في مختلف العلوم ، وتوفى سنة ٩١١ (١) .
 وكتابه مع المواعع من أنفس كتب النحو في جمع المسائل ، واختلاف المذاهب ، واستيعاب الآراء ، ولا يخلو الكتاب من بعض الاختيارات ، ومن اختياره في إعراب بحسبك درهم أن يكون بحسبك خيراً مقدماً ، ودرهم مبتدأ مؤخرأ (٢) .

٩- الأشموني :

هو علي نور الدين بن محمد من علماء عصره المعدودين . وأشهر كتبه منهج المسالك إلى ألفية ابن مالك (٣) .
 كتاب واسع الشهرة ، ينتهي كل باب فيه بخاتمة تتضمن حقائق لا تخلو من طرافة وفائدة .

١٠- الصبان :

هو محمد بن علي . ولد بالقاهرة ، وأخذ مختلف العلوم عن شيوخ عصره . وتوفى سنة ١٢٠٦ (٤) .
 ومن مؤلفاته حاشيته على شرح الأشموني للألفية ، وهي أشهر حواشي النحو ، حافلة بالمنقول والتعقيبات والجدل والآراء .

(١) حسن الحاضرة : ١ : ١٨٨ . (٣) شذرات الذهب : ٨ : ١٦٥ .

(٢) المعج : ١ : ٩٣ . (٤) تاريخ الجبيري : ٢ : ٢٢٧ .

النحو في الأندلس والمغرب وأشهر علمائها

كان السلف من علمائنا - يكترون الارتحال إلى الأقطار الإسلامية المختلفة ، وخاصة العراق ، ليلقوا علماءها ، ويطلعوا على ما عندهم من العلم . ثم يعودوا بما جمعوا من كتب وماوعوا من علم .
وإذا كان ديدن العلماء الرحلة إلى البلاد البعيدة - فأولى أن تكون بين الأندلس والمغرب ، لكن يبدو أن أهل الأندلس كانوا أكثر ارتحالاً إلى المغرب من أهل المغرب إلى الأندلس .
وقد قبض الله للأندلس في مطلع الدولة الأموية رواداً من العلماء ، وصلوها بالمشرق . بما نقلوا إليها من كتب الشريعة والنحو .
وكان نحو الأندلس أقرب إلى نحو الكوفة ؛ لأن كتاب الكسائي كان أسبق إليهم^(١) وكان الأندلسيون أهل قرآن كالكوفيين ، ولم يستطع كتاب سيويه إذ جاءهم أن يعدل من منهجهم كثيراً . فهذا ابن مالك أعظم نخاتهم - يوافق الكوفيين في كثير من آرائهم . ويكثر الاستشهاد بالحديث ما لم يكثر غيره .

(١) طقات النحويين : ٢٧٨ .

أشهر نحاة الأندلس والمغرب

١ - ابن مضاء :

هو أحمد بن عبد الرحمن بن مضاء ، ولد بقرطبة سنة ٥١٣ ، وكان عارفاً بصنوف العلم ، ومات بإشبيلية سنة ٥٩٢ .
ومن مصنفاته : المشرق في النحو ، والرد على النحاة^(١) ، وقد أنكر نظرية العامل فيما أنكر فيه على النحاة ، وغلا في ذلك غلواً كبيراً . وقد كان لنشر هذا الكتاب صدى قوياً بين المشتغلين باللغة العربية ، فمنهم من تحمس له ، ومنهم من مقته وازورّ عنه .

٢ - الشلوبين :

هو عمر بن محمد المعروف بالشلوبين . ولد بإشبيلية سنة ٥٦٢ ، وكان إمام عصره في العربية ، فكثّر الآخذون عنه . وتوفي سنة ٦٤٥ .
ومن مصنفاته : التوطئة في النحو ، وتعليق على كتاب سيويبه^(٢) .
ومن آرائه أن ليس ولا تنفيان الأزمنة الثلاثة ، كما يقول قوم . ولكنها في الأصل لتنفى الحال ما لم يكن الخبر مخصوصاً بزمان^(٣) .

(١) بغية الوعاة : ١ : ٣٢٣ .

(٢) بغية الوعاة : ٢ : ٢٢٤ .

(٣) الجمع : ١ : ١١٥ .

٣ - ابن مالك :

هو محمد جمال الدين بن عبد الله . ولد بجبّان سنة ٦٠٠ . وأخذ العربية عن غير واحد ، واعتمد على ذكائه في تحصيل الكثير من علمه . رحل إلى الشام ، وتنقل بين مدنه ، ثم استقر في دمشق ، وتصدر للتدريس فيها حتى لقي ربه سنة ٦٧٢ . وله مصنفات كثيرة منها : تسهيل الفوائد وتكامل المقاصد ، والكافية الشافية ، وخلاصتها المعروفة بالألفية^(١) . وقد نالت شهرة واسعة بين كتب النحو عامة . وظفرت بعناية كثير من العلماء . فشرحوها شروحا مختلفة ، حتى صارت لها السيطرة على دراسة النحو . ومن آرائه : وقوع (إذ) مفعولا به^(٢) .

٤ - ابن آجروم :

هو محمد بن محمد الصنهاجي ، ولد سنة ٦٧٢ . وعاش بفاس . وله مصنفات أشهرها : المقدمة المعروفة بالآجرومية . وقد نفع الله بها كثيراً من طلاب العلم المبتدئين . وتدل فيما يقول السيوطي على أن مؤلفها كان على مذهب الكوفيين في النحو ؛ لأنه استعمل بعض مصطلحاتهم ؛ وتوفي سنة ٧٢٣^(٣) .

(١) بغية الوعاة : ١ : ١٣٠ .

(٢) الهمع : ١ : ٢٠٤ .

(٣) بغية الوعاة : ١ : ٢٣٨ .

٥ - أبو حيان :

هو محمد أنير الدين يوسف . ولد ببند علي مقربة من غرناطة سنة ٦٥٤ . وأخذ عن جمع كبير من علماء المشرق والمغرب . ونبغ في علوم كثيرة . وقد استقر في القاهرة بعد تجوال في بلاد مختلفة . وتصدر بها للتدريس .

ومن مؤلفاته : التذييل والتكميل في شرح التسهيل . وارتشاف الضرب من لسان العرب . وتفسير البحر المحيط . ونوفى بالقاهرة سنة ٧٤٥^(١) .

وكان يمنع الاستشهاد بالأحاديث . ولا يرضى عن الخلاف في المسائل النظرية التي لا جدوى منها في اللغة : كالخلاف في أصل المرفوعات والمنصوبات . فيقول : « وهذا الخلاف لا يجدي »^(٢)

(١) المصدر السابق : ١ : ٢٨ . وشأة البحر : ٢٦٦ .

(٢) المعجم : ١٠٠ : ٩٣ .

سيرة النحو

لم يكده أبو الأسود يبدأ وضع النحو ، ويكتب منه ما كتب ، ثم يعلم الناس نبأه حتى أسرع إليه نفر من الطلاب يسمعون منه ، ويتلمذون له ، ثم يقبل عليهم من بعد طلاب آخرون يصنعون صنيعهم هم مع أبي الأسود .

وهكذا تمضي المسيرة فوجاً بعد فوج ، كلما مضى فوج خلفه آخر ، على مدى نحو أربعة عشر قرناً . وما منهم إلا صانع للنحو صنيعاً ، أو مضيف إليه جديداً . كلُّ على مقدار ما يتاح له ، ويفتح الله به عليه . وكان عبد الله بن أبي إسحاق أول من ذكر الناس له عملاً في النحو بعد أبي الأسود ، فقالوا : إنه فرع النحو ، وقاسه ، وأملى كتاباً في الهمز^(١) ، والهمز حقيق أن يؤلف فيه كتاب ، فإن له في القراءات أحوالاً يتنقل بينها ، كما للاسم المعرب أحوال في الكلام يتنقل بينها أيضاً .

وقد مكنت له حفاوته بالهمز والتأليف فيه أن يفوز به على أبي عمرو ابن العلاء في المناظرة التي دعاهما إليها بلال بن أبي بردة ، إبان ولايته

(١) مراتب النحويين : ١٢ .

على البصرة^(١) وإذن يمكن أن يقال : إن عبد الله بن أبي إسحاق هو أول من ألف كتاباً في الصرف ، وكانت وفاته سنة ١١٧ .

وألف عيسى بن عمر كتابين في النحو ، نوه بهما الخليل في بيتين ،

رددتها كتب التراجم المختصة ، وهما :

ذهب النحو جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عمر ذلك إكمال ، وهذا جامع وهما للناس شمسٌ وقر

واسم الكتاب الأول يدل على أنه أكمل نقصاً ، واسم الآخر يدل

على أنه جمع متفرقاً . وفي هذا إشارة إلى أن النحو لعهد عيسى بن عمر

كان قد قطع في سبيل الفوشوطاً بعيداً . وكانت وفاة عيسى سنة ١٤٩ .

وبقي الكتابان أو أحدهما إلى القرن الثالث ، فيذكر المبرد أنه قرأ أوراقاً

من أحدهما ، فكان كالإشارة إلى الأصول^(٢) .

ثم جاء كتاب سيويه ، فبهر الناس ، واستأثر بأعجابهم ، فقد رأوا

منه قصراً منيفاً ، شامخ الأعالى ، لا يسع الناظر إليه ، ولا الداخِل

فيه ، إلا أن يسبح الله الذي خلق الخليل ، وجعله خازن ذخائره ،

وخلق سيويه ، وجعله مهندس بنيته .

إنه اللغة في نحوها وصرفها وأصواتها ، بل في أصول بلاغتها أيضاً ،

وإنه النحو في أحكامه وقضاياه . وفي أقيسته وعمله ، وفي أصوله

(١) أخبار النحويين البصريين : ٢٦ .

(٢) مراتب النحويين : ٢٣ ، وطلقات النحويين : ٣٧ .

وفروعه ، وفي مناهجه وشواهدة . لم يدع من ذلك للذين جاءوا من بعده إلا يسيراً لا يحسب له حساب . والذين قالوا : إنه قرآن النحو لم يُبعدوا ولم يسرفوا . لقد ملأ الدنيا علماً ونفخ في الناس روحاً من البحث ما كانت لولاه لتكون .

وما نريد أن نبخس فضل السابقين من سلف سيبويه ، فقد أمدته كثير منهم بقدر عظيم من الآراء والأحكام ، ولا سيما يونس بن حبيب ، والأخفش الأكبر ، وأبو عمرو بن العلاء ، فكان لهم بذلك جهد مشكور في صنع الكتاب . وفي ظهوره فجأة على هذه الصورة شاهد صدق على مبلغ الجِد والإخلاص في دراسة النحو وتنمية مادته ؛ فليس بين ظهوره وابتداء وضعه سوى قرن واحد ، يزيد قليلاً . ولكنها المهمة الكبرى والمطلب الجليل يصنعان العجب العجيب .

ولم يكف النحاة بعد سيبويه ، ولا فترت همهم عن التأليف في النحو ، فألفوا فيما يخطر منه بالبال وما لا يخطر ، لا تكاد تصرفهم عنه الفتن واضطراب الأحوال ، فكان من ذلك ثروة هائلة من كتبه ، تتخالف موضوعاً وحجماً ، ما بين مبسوط ، ووسيط ، ووجيز ، أكثرها في النحو والصرف معاً ، وبعضها في النحو خاصة أو الصرف خاصة . وتنوعت عبارات الكتب في فواضحة وغامضة ، وبجملية ومفصلة ، وقاصدة ومستطردة ، يشوبها قليل أو كثير من تجريد الفلسفة وصرامة المنطق . وما كان ممكناً أن يبرأ النحو منها ، فقد صارت لها الغلبة على

مناهج الدرس ومذاهب التفكير أيام ازدهار الحياة العلمية . فكان من أثرها أن غمضت العبارة قليلاً أو كثيراً . وخاصة في كتب المشرق ، وبعض كتب العصور الأخيرة .

على أن لغموض العبارات أسباباً أخرى ، كاجتذاب القرينة . وضعف ملكة البيان . وقد كان المازني ممن يصعب الفهم عندهم^(١) . ومن العجيب أن يعتمد بعض النحويين الغموض ، بل أن يكون منهم من يعيب الوضوح . ويرى أن الأخذ به يُزرى بالنحو ، فقد قيل للأخفش : لِمَ لا تجعل كتبك مفهومة ؟ فقال : أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله . وليست هي من كتب الدين . ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعوني إليه قلت حاجتهم إلىّ فيها . وإنما كانت غايتي المنالة^(٢) . وكان السيرافي معروفاً بوضوح العبارة ، فلما ألف كتابه الإقناع في النحو لم يرق ابنه أن يكون على ما رأى من السهولة ، فكان يقول : «وضع والدي النحو في الزبالة»^(٣) !

كذا كان النحو نشوءاً وارتقاءً في البصرة ثم الكوفة ، وهو ما يقضى به سطق الواقع . فلم يكن بنجيزة العرب ولا بالبلاد المفتوحة حاجة عاجلة إليه : فأما الجزيرة فوطن العرب والعربية ، وأما البلاد المفتوحة

(١) مرات الحويين : ٧٨ .

(٢) الحيوان . ٩١/١ .

(٣) بغية الوعاة : ٥٠٨/١ .

فكان أهلها هم الكثرة الكاثرة ، وكان العرب وافدين عليهم ، وهم القلة القليلة ، ولم يكن الخِلاط أول الأمر كثيراً ولا عاماً بين هؤلاء وهؤلاء ، وإنما كان بين الرءوس من الفريقين وعلى قدر الحاجة الماسة ، ومن اليسير أن تكون الترجمة إذ ذاك هي وسيلة التفاهم بينهما والخطاب . فلمن يوضع النحو إذن ، وما الحاجة الدافعة إلى المبادرة إليه ، والتفرغ له ، والتأليف فيه ؟ ومثل الفائحين إذ ذاك في هذه البلاد ، كمثل البعثات السياسية التي تمثل دولها في دول أخرى في عصرنا ، أوتكاد .

من أجل ذلك تخلفت البلاد المفتوحة عن مواكبة مسيرة النحو في البصرة والكوفة . ولم يتبها لها أن تشارك فيها بالدراسة المتخصصة والتأليف الرفيع إلا حوالي القرن الثالث حين دعت الحاجة إلى شد أزر العربية . والحفاظ على سلامتها .

وظل النحو على ما كان له من شأن إبان عظمة الدولة . فلم يتوقف في مسيرته . ولا غض منه أن تضعفت الخلافة . وأصبحت الدولة مِرْقاً متناثرة . يقوم على كل مِرْقَة دُويلة . بل لعله أن يكون كغيره من العلوم قد زاد خصباً ونماءً . فقد كان بين أصحاب هذه الدويلات تنافس ، وفيهم طموح . كل يحاول أن يجتمع بحضرته من العلماء والشعراء مثل من كان منهم بحضرة الخلفاء وأكثر ممن بحضرة أقرانه من أصحاب الدويلات . فجعلوا يجتذبونهم . ويحببون إليهم المقام في

ظلالهم ، بما كانوا يميزون لهم من الجوائز ، ويولونهم من التكرمة والإجلال ، لا فرق فيهم بين عربى وأعجمى .

فكان لهم ما أرادوا ، وقصدَهم العلماء والشعراء ، يؤلف العلماء لهم الكتب ، وينظم الشعراء لهم المدائح : فهذا أبو على الفارسي كان عند سيف الدولة الحمداني ، ثم استدعاه عضد الدولة بن بويه ليؤدب أولاد أخيه ، فمضى إليه أبو على ، وألف له كتاب الإيضاح ، فعده قصيراً ، وكانت له مع أبي على مجالس ومساءلات في النحو^(١) .

وولت الدولة الفاطمية ابن بابشاذ ، ثم ابن بَرى أمر ديوان الإنشاء لنظر ما يصدر عنه من رسائل ، وإصلاح ما عسى أن يشوبها من أخطاء^(٢) ، ووفد تاج الدين الكِندي على قروخشاه ابن أخى صلاح الدين في دمشق ، فأكرم وفادته واستوزره ، وقرأ عليه المعظم عيسى الأيوبي كتاب سيويه وشرح الإيضاح^(٣) . ووفد ابن الحاجب على الملك الناصر داود بالكرك ، فأعظم قدره وقرأ النحو عليه^(٤) وأهدى الغورى إلى السيوطى خصباً وألف دينار فرداً الألف . وأخذ الخنصى وأعتقه . وجعله خادماً في الحجرة النبوية^(٥) .

(١) بغية الوعاة : ١٤٦/١ .

(٢) المصدر السابق : ١٧/٢ ، ٣٤ .

(٣) المصدر السابق : ٥٧٠/١ .

(٤) الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية : ٢٠٧ .

(٥) تاريخ الجبرتي : ٢٢٦/١ .

وكثير من الناس يفتنون النحو ، لكثرة الخلاف وتشابك الآراء فيه . ولا يد لأحد في هذا ، فهو من عمل الظروف والأحوال . لقد تداول العلماء النحو يوسعونه دراسة وبحثاً على توالى العصور . وكثير من شواهدة تتعدد رواياته ، والنحويون كثيرهم تتفاوت حظوظهم من العلم ، وتتفاوت درجاتهم في التذوق والفهم .

ولم يفت النحاة آخر الأمر أن ييسروا النحو على طالبيه . فتناولوه بالنظم والاختصار ، وأشهر منظوماته ألفية ابن معط وألفية ابن مالك . ولا خلاف أن الكلام المنظوم أسهل حفظاً وأبقى في الذهن أثراً . على أن آراء النحاة في كثرتها وتحالف مذاهبها إن تكن ترهق المتعلمين في درس النحو - فإن فيها عوناً محموداً للغويين الذين يرقبون اللغة المعاصرة في تطورها واستحداث أساليب وألفاظ فيها . فليس يعدمهم أن يقفوا منها على رخصة ، أو يبتدوا بها إلى وجه يقبل عثارها ، ويجيز استعمالها في فصيح الكلام . ومن النحاة من اتخذ النظم أداة للإلغاز بعض مسائل النحو . واشتهر من هؤلاء السخاوي المتوفى سنة ٦٤٣^(١) . والد ماميني المتوفى سنة ٨٣٧^(٢) . وهو نوع من المهارة الذهنية لا قيمة له ولا جدوى منه .

(١) بغية الوعاة : ١٩٢/٢ .

(٢) المصدر السابق : ٦٦/١ .

النحاة في المجتمع

ما من أحد يمارس عملاً حتى يُعرف به ، ويُنسب إليه - إلا خلف فيه أثراً متميزاً . وقد أورث النحو أصحابه الأولين غيرة على اللغة ، وجرأة على نقد المخطئين فيها . فضايق بهم خلق كثير . قال الأخفش : كان أمير البصرة يقرأ قوله تعالى في سورة الأحزاب من آية ٥٦ : (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ) بالرفع ، فضيت إليه ناصحاً ، فانتهرني ، وتوعدني . وقال : تلحنون أمراءكم ؟^(١) وكان الشعراء أشد الناس سخطاً عليهم لذلك ، فهجوهم ، وسخروا منهم .

ومن النحاة من كان يتقعر في كلامه ، كأبي علقمة النحوي ، فقد رأى عبداً حبشياً يضرب الأرض بأخر صقلبي . ويدخل ركبته في بطنه ، فلما أدخل للشهادة قال : رأيت هذا الأسحم قد مال على هذا الأبقع ، فحطّاه على فدفدٍ ، ثم ضفطة برصفتيه ، فلم يفهم الأمير كلامه وضايق به فحسر عن رأسه . وقال للصقلبي : شجني خمساً . وأعفني من شهادة هذا^(٢) .

(١) إنباه الرواة : ٢ : ٤٣ .

(٢) بغية الوعاة : ٢ : ١٣٩ .

على أنه كان من النحاة ظرفاء ، منهم سعد بن شدّاد ، إذ حضر مجلس زياد ، وقد ترفع إليه بنو راسب والطّفاوة في مولود . فقال سعد : أيها الأمير ! يلتقي المولود في الماء ؛ فإن راسب فهو من راسب ، وإن طفا فهو من طفاوة ، فأخذ زياد نعله ، وقام ضاحكاً^(١) . وقال محمد بن موسى الدوالي :

وقائلة : أراك يغير مال وأنت مهذب علم إمام
فقلت : لأن لأمّ عكس مال وما دخلت على الأعلام لام^(٢)

وكان النحاة في رزقهم ، وأحوال معيشتهم ، وسيرتهم في الناس كسائر الطوائف ، فكان الكسائي والقراء من مؤدبي الأمراء وأبناء الكبراء . وكان ثعلب يقتضى كل شهر ألف درهم يجرها عليه محمد ابن عبد الله بن طاهر ، وكان مع ذلك حريصاً مقترناً^(٣) .

وكان المبرّد يعلم الزجاج النحو ، فيعطيه الزجاج كل يوم درهماً^(٤) . وكان ابن الدهان من أئمة النحو ، وكانت له مشاركة في الفقه والأصول ، وكان مع ذلك شديد الفقر ، يجلس في الحلقة وعليه ثوب لا يكاد يستره^(٥) . وكان السيرافي لا يخرج إلى مجلس الحكم ، ولا إلى

(١) بغية الوعاة : ٢ : ٣٠ .

(٢) المصدر السابق : ١ : ٢٥٢ .

(٣) طبقات النحويين : ١٥٥ - ١٦٧ .

(٤) إنباه الرواة : ١ : ١٥٩ .

(٥) بغية الوعاة : ١ : ٥٢٣ .

مجلس التدريس في كل يوم إلا بعد أن ينسخ عشر ورقات يأخذ أجرها عشرة دراهم تكون قدر مئوته (١) .

وطلب القائم بأمر الله محمد بن الوراق ليعلم أولاده ، وكان ضريراً . فلما وصل إلى باب حجرة الخليفة ، قال له الخادم : وصلت ، فقبل الأرض ، فلم يفعل وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، وجلس . فقال القائم : وعليك السلام يا أبا الحسن ، أذن مني ، فدنا ، فسأله عن مسائل أجاب عنها (٢) .

وكان عبد الله بن الخشاب يلعب بالشطرنج مع العوام على قارعة الطريق ، ويثف في الشوارع على حلق المشعوذين ، والللاعبين بالقروود والذبيبة . وكان إذا أراد شراء كتاب غافل الناس ، وقطع منه ورقة ، ليأخذه بثمن بخس (٣) !

وليس كل ما ترك النحاة من النحو هو هذا المدون في كتبه أبواباً وفصولاً ، ولكنهم تركوا قدراً صالحاً من المنظرات فيه ، تعد دروساً عالية في المساجلة والتطبيق . وأشهرها مناظرة سيويه والكسائي : فقد جاء سيويه الكوفة ، لا يصحبه أحد من شعبيته ، ليناظر الكسائي في وطنه ، وبين تلاميذه ومريديه .

(١) إنباه الرواة : ١ : ٣١٣ .

(٢) بغية الوعاة : ١ : ٢٥٥ .

(٣) بغية الوعاة : ٢ : ٣٠ .

والتأم الجمع في مجلس يحيى البرمكي ، فقال الكسائي لسيويه :
 تسألني أو أسألك ؟ قال سيويه : بل تسألني أنت . قال الكسائي : كيف
 تقول : قد كتبت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور ، فإذا هو هي ،
 أو هو إياها ؟ قال سيويه : فإذا هو هي ، ولا يجوز : هو إياها . قال
 الكسائي : يجوز الوجهان . فاحتكموا إلى من يباب يحيى من العرب .
 فوافقوا الكسائي^(١) ، فاستكان سيويه . وانصرف مهزوماً .
 ويرى كثير من النحاة أن العصبية تدخلت في المناظرة ، على نحو ما .
 ولا أراه بعيداً ، فالكسائي وثيق الصلة بكبار الدولة ، وهو بعد إمام نخبة
 الكوفة بلا حول .

وبعد ، فقد صنع النحاة للعربية أعظم ما يستطيع البشر أن
 يصنعوا . ويرحم الله أبا العلاء المعري إذ يقول : عن ثلاثة من كبرائهم :
 تولى سيويه وسجائس سبب من الأيام ، فاختل الخليل
 ويونس أوحشت منه المغاني ودون مصابه الخطب الجليل
 أتت علل الترن لا بكاهم من اللفظ - الصحيح ولا العليل
 ولو أن الكلام بمس شيئاً لكان له وراءهم أليل^(٢)

(١) انظر مثلاً رغبان الأعيان : ٣ : ١٣٤ ، والمغني : ١ : ٧٤ .

(٢) اللزومات : ٢ : ١٥٧ ، الأليل : الصراخ عند المصيبة .



تقدم

خصم ٢٠٪ على كتب دار المعارف
١٠٪ على كتب الفيرعربية ومستوردة
٥٪ على الكتب الجامعية

لأصدقاء دار المعارف
مرحباً بك صديقاً لنا

تقدم إلى أقرب مكتبة من مكبات الدار :

- ♦ اربط شروحي طلب الصداقة واستلم بطاقة الصديقت
- ♦ ارفع مبلغ جنيه واحد
- ♦ عندما تصل مشترياتك إلى ٢٥ جنيهاً سيرد إليك الجنيه
- ♦ تمتع بمميزات الصداقة طالما تحمل بطاقة الصديقه

مكبات دار المعارف
منتشرة في المدن الكبرى

القاهرة - الإسكندرية - طنطا - شبين الكوم - الزقازيق - المنصورة
الإسماعيلية - العريش - أسيوط - سوهاج - قنا - أسوان

رقم الإيداع	١٩٧٨/٥٢٨٤
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٢٤٧-٥٣٤-٠

١/٧٨/٢٧٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج.٢٠٠ع.)

تاريخ النحو

هذا الكتاب

يقدم هذا الكتاب موجزا لتاريخ النحو
العربي في نشأته وتطوره وعوامل التأثير فيه .
وأشهر علمائه الذين حملوا أمانة . فحفظوها
وأدوها أحسن الأداء .
وعلم النحو هو أول علم دون في الإسلام .
وتابعت عليه أجيال من العلماء الجادين الذين
وضعوه في صورته المتكاملة . وأفادوا به الأجيال
المتلاحقة إفادة لا تنقطع ما دامت اللغة وما دام
الفكر العربي

To: www.al-mostafa.com